الحـــج في الشرائــع الإلهيـــــة

وأثره في ريادة مكة المكرمة تـاريخيا

إعداد

د . عبد البـاري محمد الطاهر

عضو اتحاد المؤرخين العرب

أستاذ مشارك التاريخ الإسلامي والحضارة الإسـلامية

بكلية دار العلوم القاهرة ووكيل قسم الاجتماعيات بكلية المعلمين بأبها

بحث مقدم إلى ندوة

مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية ١٤٢٦هـ

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد :

فإن الدين الخاتم الذي اختاره الله تعالى لعباده ورضيه لهم، وجاء به محمد ﷺ هو الإسلام، وذلك بنص القرآن الكريم، حيث قال الحق سبحانه وتعالى : (وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلام دِيناً) (المائدة: من الآية٣). وقد حدد الله لعباده شرائع يعبدونه بها، قال تعالى : (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ) (الحج:٣٤) .

وفي الشرائع الإلهية من لدن آدم إلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ كانت شعيرة الحج موجودة، وقد حج إلى بيت الله الحرام رسل الله عليهم السلام، ودعوا إلى أداء هذه الشعيرة، فكانت مكة المكرمة والكعبة المشرفة مقصد الحجاج عبر التاريخ منذ آدم عليه السلام إلى يومنا هذا، وبمرور الزمان غير الناس في طريقة الأداء، وبقي الأصل واحدا وهو القصد لبيت الله الحرام، ففي الجاهلية على سبيل المثال كان بعض العرب يطوفون بالبيت الحرام عراة الأجساد، مشبكين بين أصابعهم يصفرون ويصفقون، وقد سجل الله سبحانه عليهم هذه الحالة فقال مستنكراً : (وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ) (الأنفال:٣٥) . والمكاء : الصفير . والتصدية: التصفيق.

ولما جاء الإسلام اعتبر (الحج) الركن الخامس من أركانه،

ومعناه في الإسلام : القصد إلى الكعبة المشرفة في مكة لأداء مناسك معينة من الطواف حول الكعبة ، والسعي بين الصفا والمروة، والوقوف بعرفة، والمبيت بمزدلفة، ورمي الجمار في منى، والحلق والذبح تقربا إلى الله تعالى ، هذه العبادة تجب مرة واحدة في العمر .

ولما كان الحج ممتدا عبر الزمان، ثابتا في المكان، ظهر أثره في ريادة مكة المكرمة الدينية والسياسية عبر التاريخ .

وأمة الإسلام اليوم في أمس الحاجة إلى التعرف على معالم دينها الحنيف، وتدرك مكانة مدينة الإسلام ومبعث الرسالة الخاتمة (مكة المكرمة) التي شرفها الله عز وجل للعالم، وأقسم سبحانه بها فقال : (وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ) (التين:٣) . وقال تعالى : (لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ) (البلد:١) .

وقد أحب رسول الله ﷺ مكة المكرمة وأشار إلى فضلها وخيريتها وحب الله تعالى لها، حين قال ﷺ: "علمت أنك خير أرض الله وأحب الأرض إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت" (رواه أحمد : في مسنده حديث رقم (١٨٣٦٦) . والحزورة عند باب الحناطين).

وفي هذه الدراسة التاريخية يحاول الباحث الاستدلال على أن شعيرة الحج منسك جاءت به جميع الشرائع الإلهية، وأن هذه الشعيرة كان لها أثر بالغ في تحقيق ريادة مكة المكرمة زمانا ومكانا .

ويهدف الباحث من خلال هذه الدراسة الوصول إلى ضرورة إعادة هذا الدور الريادي لمكة المكرمة من جانب، والإسهام في بناء صرح الوحدة الإسلامية من جديد، في وقت تبحث فيه هذه الأمة عن ريادة مكانية وزمانية، تمهيدا لوحدة إسلامية شاملة في كل مظاهر

الحياة . وقد تمثلت هذه الدراسة فيما يلي:

الحج في الشرائع الإلهية

وأثره في ريادة مكة المكرمة تاريخيا

المبحث الأول (تمهيدي) : مفاهيم ضرورية :

(أ) مفهوم الحج .

(ب) مفهوم الشرائع الإلهية .

(ج) بناء الكعبة المشرفة وعمارة مكة المكرمة .

المبحث الثاني : الحج في الشرائع الإلهية :

(أ) حج الملائكة عليهم السلام .

(ب) حج آدم عليه السلام .

(ج) ما من نبي إلا حج .

(د) وحدة شعيرة الحج في الشرائع الإلهية وتطور مظهرها عبر التاريخ .

المبحث الثالث : أثر الحج في تحقيق ريادة مكة المكرمة :

(أ) أثر الحج في تحقيق ريادة مكة قبل الإسلام .

(ب) أثر الحج في تحقيق ريادة مكة في الإسلام .

الخاتمة : التوصيات والمقترحات .

وإني إذ أتقدم بهذه الدراسة أسأل الله العلي القدير أن ينفع بها ، وأن تكتب في ميزان حسناتي وحسنات جامعة أم القرى وكل العاملين فيها ، وأن تحقق الهدف الذي من أجله وضعت، والله من وراء القصد وهو الهادي إلى أقوم سبيل .

المبحث الأول (تمهيدي)

مفاهيم ضرورية

(أ)مفهوم الحج :

الحج في اللغة والاصطلاح :

الحج في اللغة يعني : كثرة القصد إلى من يعظم، ومن معانيه: الزيارة والإتيان، وإنما سمي حاجا بزيارة بيت الله تعالى [١] .

ويعني في الاصطلاح الشرعي : قصد البيت الحرام بمكة للعبادة على صفة مخصوصة في وقت معلوم، وقد "تعورف استعماله في القصد إلى مكة للنسك والحج إلى البيت خاصة، أو قصد التوجه إلى البيت بالأعمال المشروعة فرضا وسنة" [٢].

الحج في القرآن الكريم :

ورد اسم (الحج) في القرآن الكريم معرفا بالألف واللام في خمسة مواضع هي :

قوله تعالى : (وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ

---

(١) راجع : العين ج ٣ ص: ٩. ولسان العرب ج ٢ ص: ٢٢٧ . ومختار الصحاح ج ١ ص: ٥٢ .

(٢) راجع : لسان العرب ج ٢ ص: ٢٢٦. ومختار الصحاح ج ١ ص: ٥٢ .

كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)(البقرة:١٩٦) .

وقوله تعالى:(الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ)(البقرة:١٩٧).

وقوله تعالى : (وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) (التوبة:٣).

وقوله سبحانه:(وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) (الحج:٢٧).

وقوله : (يَسْأَلونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (البقرة:١٨٩) .

كما ورد بغير الألف واللام في موضعين هما :

قوله تعالى : (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ) (البقرة:١٥٨) .

وقوله تعالى : (فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ

اللَّـهَ غَنِـيٌّ عَـنِ الْعَـالَمِينَ) (آل عمـران:٩٧). وقـد قـرئ: (ولله علـى النـاس حج البيت) بفتح الحاء وكسرها، والفتح الأصل [١] .

وهنـاك كلمـات ذات صـلة بـالحج ومدلولـه الـشرعي، منهـا : المنسك، والشعيرة .

أمـا المنـسك، فقـد فـسر زيـد بـن أسـلم رضـي الله عنـه " المنـسك " في قولـه تعـالى : (وَلِكُـلِّ أُمَّـةٍ جَعَلْنَـا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّـهِ عَلَـى مَـا رَزَقَهُـمْ مِـنْ بَهِيمَـةِ الْأَنْعَـامِ فَـإِلَهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِـدٌ فَلَـهُ أَسْـلِمُوا وَبَـشِّرِ الْمُخْبِـتِينَ)(الحـج:٣٤) بقولـه: "إنهـا مكـة لم يجعـل الله لأمـة قـط منـسكا غيرها"[٢]

وجـاء في تفـسير الطـبري : "(ولكـل أمـة) : ولكـل جماعـة سلف فيكـم مـن أهـل الإيـمان بـالله أيهـا النـاس (جعلنـا) ذبحـا يهريقـون دمه " [٣] .

وقـد اختلـف أهـل التأويـل في المقـصود بقولـه (لكـل أمـة جعلنـا منـسكا) علـى أقـوال، منهـا: أن المنـسك بمعنـى العيـد [٤]، ومنهـا أنـه يقـصد بـه المكـان المـألوف ؛ لأن أصـل المنـسك في كـلام العـرب الموضـع المعتـاد الـذي يعتـاده الرجـل ويألفـه لخـير أو شـر، يقـال: إن لفـلان منـسكا يعتـاده، يـراد مكانـا يغـشاه ويألفـه لخـير أو شـر . وإنمـا سميـت مناسـك

(١) لسان العرب ج ٢ ص: ٢٢٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٣ ص: ٢٢٢. والدر المنثور ج: ٦ ص: ٤٨

(٣) تفسير الطبري ج ١٧ ص: ١٦٠ .

(٤) الإتقان ج: ١ ص: ٣٢٢.

الحـج بـذلك لـتردد النـاس إلى الأمـاكن الـتي تعمـل فيهـا أعمـال الحـج والعمرة [١].

وقـال الثعـالبي : " أخـبر تعـالى أنـه جعـل لكـل أمـة مـن الأمـم المؤمنـة منـسكا أي موضـع نـسك وعبـادة هـذا علـى أن المنـسك ظـرف ويحتمـل ان يريـد بـه المـصدر كأنـه قـال عبـادة والناسـك العابـد "[٢]. و"عـن زيـد بـن أرقـم قـال : قلـت أو قـالوا : يـا رسـول الله مـا هـذه الأضـاحي؟ قـال : سـنة أبـيكم إبـراهيم . قـالوا : مالنـا منهـا ؟ قـال : بكـل شـعرة حـسنة . قال : فالصوف ؟ قال ؟ بكل شعرة من الصوف حسنة "[٣].

وأمـا الـشعيرة فهـي مفـرد كلمـة الـشعائر[٤]، وشـعائر الله مـا جعله الله علما لطاعته[٥].

وشـعائر الحـج مناسـكه [٦]. والـشعيرة أيـضا : البدنـة، تهـدى، والشعائر : أعمال الحج، وكل ما جعل علما لطاعة الله تعالى [٧].

وممـا يتـصل بـذلك : **المـشعر الحـرام** في قولـه تعـالى : (فـاذكروا

---

(١) تفسير الطبري ج ١٧ ص: ١٩٨ . وراجع تفاصيل الروايات القائلة بذلك وغيره في الموضع نفسه . وراجع تفاصيل أكثر في : تفسير أبي السعود ج ٦ ص: ١٠٦ . وتفسير الواحدي ج ٢ ص: ٧٣٤ . وفتح القدير ج ٣ ص: ٤٥٢ .وتفسير النسفي ج ٣ ص: ١١٢ .وروح المعاني ج ١٧ ص: ١٥٣.

(٢) تفسير الثعالبي ج ٣ ص: ٨٠.

(٣) تفسير ابن كثير ج ٣ ص: ٢٢٢. ورواه أحمد في مسنده حديث رقم (٤٣٦٨) .

(٤) التبيان في إعراب القرآن ج ١ ص: ٧٠ .

(٥) التبيان في تفسير غريب القرآن ج ١ ص: ١١٣.

(٦) لسان العرب ج ٤ ص: ٤١٥ .

(٧) مختار الصحاح ج: ١ ص: ١٤٣.

الله عند المشعر الحرام) هو مزدلفة وهي جمع تسمى بهما جميعا والمشعر المعلم والمتعبد من متعبداته والمشاعر المعالم التي ندب الله إليها وأمر بالقيام عليها ومنه سمي المشعر الحرام لأنه معلم للعبادة وموضع . وقيل شعائر الله : مناسك الحج . وقال الزجاج في شعائر الله : يعني بها جميع متعبدات الله التي أشعرها الله أي جعلها أعلاما لنا ، وهي كل ما كان من موقف أو مسعى أو ذبح وإنما قيل شعائر لكل علم مما تعبد به لأن قولهم شعرت به علمته فلهذا سميت الأعلام التي هي متعبدات الله تعالى شعائر و المشاعر مواضع المناسك [١] .

ويتضح لنا من خلال استعراض معاني (الحج والمنسك والشعيرة) أن كلمة الحج أشمل الكلمات للدلالة على المعنى ، فهي تحمل معنى المنسك والشعيرة الذي لا يتعدى الجانب المادي وهو المعلم والمكان أو غير ذلك من الأشياء المادية ، أما الحج فيزيد عليها ليضم الأمور الروحية والألفاظ التي يتعبد بها ، وهذا من دلائل شمولية دين الإسلام الذي ثبت هذا اللفظ ليدل به على معنى العبادة الحقة ، وصدق الله القائل : (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) (التوبة:٣٣) و(الصف:٩) . وقوله : (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً) (الفتح:٢٨).

---

(١) لسان العرب ج ٤ ص: ٤١٥.

(ب) الشرائع الإلهية :

مفهوم الشرائع الإلهية :

"الشرائع" في اللغة تعني : "المواضع التي تورد، الواحدة شريعة "[١] . والشرائع مصدر للفعل (شرع) أي سن، وبين، وأوضح ونهج [٢] .

وتعني في الاصطلاح : " ما شرع الله للعباد من أمر الدين وأمرهم بالتمسك به من الصلاة والصوم والحج وشبهه " [٣] . والشريعة الإسلامية هي ما شرعه الله لعباده المسلمين من عقائد وأحكام في كل مناحي الحياة، من عبادات ومعاملات وأخلاق، تستند إلى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

"الشريعة" في القرآن الكريم :

وقد ورد لفظ "شريعة" في القرآن الكريم في قوله تعالى : (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ) (الجاثية:١٨) .

كما ورد لفظ (شرع) في القرآن الكريم في قوله تعالى : (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى

---

(١) غريب الحديث للحربي ج ١ ص: ١٦٦.

(٢) الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي ج: ١ ص: ٤٢٠ .

(٣) العين ج: ١ ص: ٢٥٣.

الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ) (الشورى:١٣) أي شرع لكم ولمن كان قبلكم إقامة الدين وترك الفرقة والاجتماع على اتباع الرسل، وقوله : والذي أوحينا إليك أي : هو الذي شرع ما أوحينا إليك أي هو الذي شرع ما أمر به إبراهيم وموسى وهو قوله تعالى : (أن أقيموا الدين) على معنى هو: أن أقيموا الدين أي الطاعة على ما شرع، ولا تتفرقوا فيه فتشرعوا خلاف ما شرع، والأصل في قوله عز وجل: (شرع لكم من الدين) أي بين وأوضح ونهج [١] .

وورد لفظ (شرعة) في قوله تعالى : (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)(المائدة: من الآية٤٨) . "قال الله عز وجل : (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) أي : طريقا واضحا أمرنا بالاستقامة عليه ". و "الشرعة : ابتداء الطريق، والمنهاج معظمه "[٢] .

فالشرائع الإلهية إذن هي التي وضعها الله سبحانه وتعالى لعباده، وأمرهم بالاستقامة عليها .

ومن الكلمات المتصلة بمدلول الشرائع كلمة "النسك" ولها عدة معان، منها : العبادة، والطاعة، وكل ما تقرب به إلى الله تعالى، وما أمرت به الشريعة، والورع عما نهت عنه، وقيل:النسك الدم،

---

(١) راجع: الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي ج ١ ص : ٤٢٠: ٤٢١ .

(٢) الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي ج ١ ص: ٤٢١.

والنسيكة: الذبيحة[١]. وفي التنزيل : (وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا) (البقرة: من الآية١٢٨) أي : متعبداتنا [٢].

وبناء على ما تقدم، يمكن القول : إن المقصود بالحج في الشرائع الإلهية : تلك العبادة التي أمر الله بها عباده، تقربا إليه، وأمرهم بالاستقامة عليها، وحدد لها مكانا وزمانا ثابتين، قال تعالى: (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً)(آل عمران: من الآية٩٧)، وقال سبحانه : (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ)(البقرة: من الآية١٩٧).

وقد قام بهذه الشعيرة الملائكة عليهم السلام، وتبعهم بنو آدم، وخصوصا أنبياء الله تعالى عليهم السلام، فصارت عبادة ممتدة عبر الزمان، محددة المكان والأركان . وفيما يلي تأكيد وحدة هذه الشعيرة، والتزام عباد الله بها من لدن آدم عليه السلام بعد كلمة موجزة عن بناء الكعبة المشرفة وعمارة مكة المكرمة .

(ج) بناء الكعبة المشرفة وعمارة مكة المكرمة :

الكعبة في اللغة :

الكعبة في اللغة تعني : البيت المربع، يقال : كعبت الشيء ربعته . الكعبة : الغرفة . وسمي البيت الحرام بالكعبة لتكعيبها أي تربيعها، وقالوا : كعبة البيت، فأضيف، لأنهم ذهبوا بكعبته إلى

---

(١) راجع : لسان العرب ج: ١٠ ص: ٤٩٨ . و النهاية في غريب الحديث ج: ٥ ص: ٤٧.

(٢) لسان العرب ج: ١٠ ص: ٤٩٩ .

تربع أعلاه، وسمي كعبة ؛ لارتفاعه وتربعه، وكل بيت مربع فهو عند العرب كعبة [١] .

بناء الكعبة المشرفة :

قدَّر الله تعالى أن يصطفي من هذه الأرض بقعة يباركها، فكانت مكة المكرمة، التي شرفها الله بالبيت الحرام (الكعبة) لتكون رمزاً لوحدة البشر في أهدافهم وتوجهاتهم، فكان ذلك أول بيت يربط الناس بخالقهم الجليل، يتلمسون في هذا البيت البركة والهداية . قال تعالى:﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ﴾(آل عمران: آية ٩٦) .

وقد اختلف المؤرخون في تحديد أول من بنى الكعبة المشرفة، فمنهم من قال : إن الله وضعها أولا لا ببناء أحد [٢] ، ومنهم من قال : إن الملائكة عليهم السلام عمرت البيت وطافت به قبل آدم [٣]، ومنهم من قال : أول من بنى البيت آدم بعد أن حددت مكانه الملائكة[٤]

---

(١) لسان العرب ج ١ ص: ٧١٨.

(٢) راجع تفاصيل الموضوع ورواياته المتعددة في شرح الزرقاني ج ٢ ص: ٣٩٧ : ٤٠٣ .

(٣) أخبار مكة للأزرقي: ص ٢ .

(٤) من الروايات الدالة على أن الملائكة عليهم السلام أعلمت آدم عليه السلام مكان البيت فبناه ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه قوله : أوحى الله إلى آدم أن لي حرما بحيال عرشي، فانطلق فابن لي بيتا فيه، ثم حف به كما رأيت ملائكتي يحفون بعرشي، فهنالك أستجيب لك ولولدك من كان منهم في طاعتي، فقال آدم : أي ربي وكيف لي بذلك لست أقوى عليه ولا أهتدي له ؟ فقيض الله له ملكا فانطلق به نحو مكة، فكان آدم إذا مر بروضة ومكان يعجبه قال للملك : انزل بنا ههنا فيقول له الملك : مكانك، حتى قدم مكة، فكان كل مكان نزل به عمرانا، وكان كل مكان تعداه مفاوز وقفارا، فبنى البيت من خمسة أجبل من طور سيناء وطور زيتون ولبنان والجودي وبنى

=

وأنـه عليـه الـسلام عمـره[١]، واسـتمر أبنـاء آدم في عبـادتهم لله، وطـوافهم حـول الكعبـة، وتعميرهـا[٢]، إلى أن جـاء الطوفـان في عهـد نـوح عليـه السلام فاجتاح البيت، ولم تبق إلا قواعده[٣].

إقامة إبراهيم عليه السلام للكعبة :

فلمـا كـان زمـن نـبي الله إبـراهيم جـدده[٤] علـى بنـاء آدم بعـد أن بـوأه الله لـه، قـال تعـالى: (وَإِذْ بَوَّأْنَـا لِـإِبْرَاهِيمَ مَكَـانَ الْبَيْـتِ أَنْ لا تُـشْرِكْ بِـي شَـيْئاً وَطَهِّـرْ بَيْتِـيَ لِلطَّـائِفِينَ وَالْقَائِمِـينَ وَالرُّكَّـعِ الـسُّجُودِ) (الحـج:٢٦)[٥] وقـال سـبحانه : (وَإِذْ يَرْفَـعُ إِبْـرَاهِيمُ الْقَوَاعِـدَ مِـنَ الْبَيْـتِ وَإِسْـمَاعِيلُ رَبَّنَـا تَقَبَّـلْ مِنَّـا إِنَّـكَ أَنْـتَ الـسَّمِيعُ الْعَلِـيمُ) (البقـرة:١٢٧). فلمـا أتم إبـراهيم و إسماعيـل عليهمـا الـسلام البنـاء أمرهمـا الله أن يحافظـا

=

قواعده من حراء . فلما فرغ من بنائه خرج به الملك إلى عرفات فأراه المناسك كلها التي يفعلها الناس اليوم (الطبقات الكبرى ج ١ ص : ٣٨).

(١) دلائل النبوة للبيهقي: ج ٢ ص ٤٥ . والسيرة الشامية للشامي: ج ١ ص ١٧١ . وقال الشامي : " رواه ابن أبي حاتم وابن جرير والطبراني موقوفا .

(٢) أخبار مكة للأزرقي : ص ٨١ . والروض الأنف للسهيلي ج ١ ص ٢٢١ .

(٣) أخبار مكة للأزرقي: ص ٨١ . وإعلام العلماء للقطبي: ص ٣٧ وما بعدها) .

(٤) جزم الحافظ ابن كثير في (البداية والنهاية ج ١ ص ١٧٨) أن إبراهيم عليه السلام كان أول من بنى البيت، فقال : " ولم يجئ في خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنيا قبل الخليل عليه السلام، ومن تمسك في هذا بقوله ﴿ مكان البيت ﴾ فليس بناهض ولا ظاهر، لأن المراد مكانه المقدر في علم الله، المقرر في قدرته، المعظم عند الأنبياء موضعه، من لدن آدم إلى زمان إبراهيم " . وقد علق الشامي في (سبل الهدى والرشاد ج ١ ص ١٧٢) على ذلك الكلام بقوله : " وفيه نظر لما ذكر من الآثار " .

(٥) راجع تفاصيل الموضوع ورواياته المتعددة في شرح الزرقاني ج ٢ ص: ٣٩٧ : ٤٠٣ ..

عليه ويبعدا عنه كل رجس سواء أكان مادياً كالأقذار، أم معنوياً كالشرك بالله، قال تعالى:(وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)(البقرة:من الآية١٢٥) .

وبعد الفراغ من رفع قواعد البيت، أمر الله تعالى نبيه إبراهيم عليه السلام بقوله : ﴿ وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ﴾ (سورة الحج : آية ٢٧) . ووصل النداء إلى كل من كتب الله له الحج إلى بيته الحرام إلى يوم القيامة .

وازدادت بذلك هيبة هذا المكان، وحلّت فيه بركات الله ورحماته وأمنه، وجاء التصريح بذلك في قوله تعالى : ﴿ فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ﴾ (سورة آل عمران : من الآية ٩٧) . وفي قوله تعالى: ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً ﴾ (سورة البقرة : من الآية ١٢٥).

ولقد كان الأمر بالأذان للناس بالحج من دلائل الإعجاز الإلهي في هذا المكان الطاهر، لأنه أصبح بهذا النداء الإلهي الذي رفعه لسان إبراهيم عليه السلام، فوصل إلى كل من سبق في علم الله أنه سيحج – أصبح هذا المكان عالمياً قولاً وفعلاً .

دعوة خليل الله إبراهيم واستمرار عمارة البيت:

ولقد دعا نبي الله " إبراهيم " عليه السلام ربه فقال : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة:١٢٩) . وقد اخترقت دعوة

الخليل إبراهيم عليه السلام حواجز الزمن، فاستمرت عمارة البيت الحرام بعده، يقوم بها العماليق، ثم جُرهم، ثم قصي بن كلاب – جد النبي ﷺ – ثم قريش، وهذه العمارة الأخيرة هي التي شارك فيها الرسول ﷺ وهو في الخامسة والثلاثين من عمره، بحمل الأحجار، وبالتحكيم بين القبائل في وضع الحجر الأسود في موضعه.

وقد توالت عمارة البيت الحرام بعد ذلك، فمنها : عمارة عبد الله بن الزبير، ثم عمارة الحجاج بن يوسف الثقفي، ولم يزل الخلفاء والأمراء يتعهدونه بالعمارة والتوسعة حتى العصر الحديث، حيث كانت أكبر توسعة قام بها خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز [١].

محاكاة الكعبة المشرفة قبل الإسلام :

كان العرب قبل الإسلام يدركون مكانة الكعبة وفضلها وشرفها، حتى إنهم بنوا مثلها محاكاة لها، وسموا بناياتهم باسم الكعبة، أو أسماء أخرى مثل :

"ذي الخلصة" في اليمن، وكان يسمى "الكعبة اليمانية" وهو بيت أصنام لدوس وخثعم وبجيلة، ومن كان ببلادهم من العرب، وقد أمر النبي ﷺ جرير بن عبد الله رضي الله عنه بهدمه بعد فتح مكة[٢].

---

(١) راجع السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية لمهدي رزق الله : ص ٥١-٥٦ .

(٢) مسائل الإمام أحمد : أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال (٢٦٦هـ)، الدار العلمية، دلهي، سنة ١٩٨٨م الطبعة الأولى، تحقيق : د.فضل الرحمن دين محمد، ج١ ص: ١١٣.

وهـذا الـصنم هـو الـذي استقـسم عنـده امـرىء القـيس لما قتلـت بنـو أسـد أبـاه حجـرا وخـرج يـستنجد بمـن يعينـه علـى الأخـذ بثـأره، وقـد جمـع مـن العـرب عـددا كـبيرا، ثـم أتـى هـذا الـصنم فاستقـسم عنـده بقداحـه وهــي ثلاثــة الآمــر والنــاهي والمتربــص فأجالهــا فخــرج النــاهي ثــم أجالهــا فخــرج النــاهي ثـم أجالهـا فخــرج النــاهي فجمعهــا وكــسرها وضــرب بهــا وجـه الـصنم وقـال مصصت بظـر أمـك لـو قتـل أبـوك مـا نهيـتني فقـال عنـد ذلك :

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا   مثلي وكان شيخك المقبورا
لم تنه عن قتل العداة زورا

ثــم خــرج فظفــر بــبني أســد، فيقــال : إنــه مــا استقــسم عنــد ذي الخلـصة بعـدها أحـد بقـدح حتـى جـاء الإسـلام وهدمـه جريـر بـن عبـد الله البجلي رضي الله عنه [١].

و"بيــت الأقيــصر" في مــشارف الــشام، وكــان مقــصد عــدة قبائــل مثــل : قــضاعة ولخــم وجــذام وعاملــة وغطفــان يحجــون إليــه ويحلقــون رؤوسهم عنده [٢].

و"كعبــة نجــران"، وكانــت قبــة مــن أدم، علــى بنــاء الكعبــة، وكــان النــاس يعظمونهــا مــضاهاة للكعبــة، وكــان فيهــا أســاقفة هــم الــذين جــاءوا إلى الــنبي ﷺ وقـد دعـاهم إلى المباهلـة فـامتنعوا، وصـالحوه

---

(١) معجم البلدان لياقوت بن عبد الله الحمـــوي أبو عبد الله (٦٢٦هـ)، دار الفكـر، بيـروت، ج ٢ ص ٢٨٤ .

(٢) معجم البلدان، ج ٢ ص ٢٣٨ .

ﷺ [(١)]، وقد ورد ذكر المباهلة في قوله تعالى : (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ)(آل عمران:٦١) .

و"القليس" التي بناها أبرهة الأشرم (صاحب الفيل)، وكان يريد صرف العرب إلى بنايته هذه ويهدم الكعبة المشرفة، "وقد اجتهد أبرهة في زخرفتها فجعل فيها الرخام المجزع والحجارة المنقوشة بالذهب كان ينقل ذلك من قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام وجعل فيها صلبانا من الذهب والفضة ومنابر من العاج والآبنوس " [(٢)]، ومع هذا خاب ظن أبرهة في هدم الكعبة المشرفة، وعاقبه الله سبحانه أشد العقاب، وجاءت قصته في سورة الفيل، قال تعالى : (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ . أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ . وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ . تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ. فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ) (سورة الفيل:الآيات ١ : ٥).

ومع كل هذا فقد "اجتمع لبيت مكة من بين هذه البيوت الحرام ما لم يجتمع لبيت آخر في أنحاء الجزيرة " [(٣)]، فعظمه أهل مكة حتى إنهم كانوا إذا رحل أحدهم عن مكة حمل معه حجرا من

---

(١) معجم البلدان (٦٢٦هـ) ج ٥ ص: ٢٦٨، ٢٦٩.

(٢) السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون للحلبي:علي بن برهان الدين الحلبي (١٠٤٤هـ)دار المعرفة بيروت، سنة ١٤٠٠هـ، ج١ص:٩٦.

(٣) معجم البلدان (٦٢٦هـ) ج ٥ ص: ٢٦٨، ٢٦٩.

حجارة الحرم تعظيما للحرم، فحيثما نزل وضعه وطاف به كطوافه بالكعبة [١].

دخول الأصنام إلى البيت الحرام وعبادتها :

"ذكر بعض أهل العلم أن عمرو بن لحي [٢].خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره فلما قدم مآب من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق وهم من ولد عملاق ويقال عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟ قالوا هذه أصنام نعبدها ونستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم : أفلا تعطونني منها صنما فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه ؟ فأعطوه صنما يقال له هبل فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه " [٣].

ولم يكتف عمرو بصنم (هبل) بل نصب صنما آخر يقال له (مناة) "على ساحل البحر مما يلي قديد فكانت الأزد وغسان يحجونها ويعظمونها إذا طافوا بالبيت وأفاضوا من عرفات وفرغوا من منى أتوا مناة فأهلوا لها فمن أهل لها لم يطف بين الصفا والمروة ، وكانت مناة

(١) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله و ج: ١ ص: ٧٧ .

(٢) هو عمرو بن لحي الخزاعي من قبيلة خزاعة وكان كبير قومه،وقد تولى أمر البيت الحرام، وبقيت الولاية في خزاعة إلى أن أخذها بعدهم قصي بن كلاب جد النبي ﷺ. راجع مسائل الإمام أحمد ج١ ص: ٦١ والاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ج١ص: ٦٠.

(٣) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ج ١ ص: ٧٧ .

للأوس والخزرج والأزد من غسان ومن دان دينهم من أهل يثرب "[١].

وأما اللات، فكان صنما تعبده ثقيف، وتعطف عليه العزى، وأصل اللات صخرة كان يلت عليها السويق رجل يهودي من ثقيف، فلما مات قال عمرو بن لحي لثقيف : لم يمت ولكن دخل في الصخرة، ثم أمرهم بعبادتها وأن يبنوا عليها بنيانا يسمى اللات، ففعلوا ، وكانت قريش وجميع العرب يعظمونها ، ولما فتح الله مكة المكرمة ودخلت ثقيف في الإسلام أمر النبي بهدم اللات[٢]. وقد ورد ذكر هذه الأصنام في قوله تعالى : (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى) (النجم:١٩: ٢٠) .

وأما صنما (إساف ونائلة)[٣] فقد كانا رجلا وامرأة ففجرا في الحرم، فمسخا حجرين ؛ ليعتبر بهما فقدم الأمر، ووضعهما عمرو بن لحي على الصفا والمروة وكان يذبح عليهما تجاه الكعبة، ثم أمر الناس بعبادتهما ، ثم حولهما قصي فجعل أحدهما بلصق البيت وجعل الآخر بزمزم وكان ينحر عندهما وكانت الجاهلية تتمسح بهما[٤].

ويذكر أن عمرو بن لحي كان له رئي من الجن فأخبره

(١) أخبار مكة ج ٥ ص: ١٦٣.

(٢) معجم البلدان ج ٥ ص: ٤، ٥ .

(٣) هما : إساف بن عمرو ونائلة بنت سهيل من جرهم ففجرا في الكعبة فمسخا حجرين عبدتهما قريش . . لسان العرب ج٩ ص : ٦.

(٤) انظر : معجم البلدان ج١ ص: ١٧٠ . ولسان العرب ج ٩ ص: ٦ .

بمكان أصنام قوم نوح الخمسة [١] التي ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى: (وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً) (نوح:٢٣)، وأنها مدفونة بجدة، فبحث عنها وأخرجها، وجاء موسم الحج فدفع بها إلى القبائل، فذهبت بها إلى أوطانها[٢] .

عالمية مكة المكرمة وموقعها المتميز :

وقد أكد القرآن الكريم حقيقة عالمية المكان حيث قال الحق سبحانه : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومَنْ دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً. ومن كفر فإن الله غنيٌّ عن

---

(١) كان هؤلاء الخمسة "قوما صالحين بين آدم ونوح وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا زين لهم إبليس أن يصوروا صورهم ليتذكروا بها اجتهادهم وليتسلوا بالنظر إليها فصورهم، فلما ماتوا هم وجاء آخرون قالوا : ليت شعرنا هذه الصور ما كان آباؤنا يصنعون بها ؟! فجاءهم الشيطان فقال : كان آباؤكم يعبدونها فترحمهم وتسقيهم المطر، فعبدوها فابتدئ عبادة الأوثان من ذلك الوقت، وبقي الناس يعبدونها زمانا، فلما كان أيام الطوفان دفنها الطين والتراب والماء، فلم تزل مدفونة حتى أخرجها الشيطان لمشركي العرب " تفسير القرطبي ج ١٨ ص: ٣٠٧ : ٣١٠.

(٢) " عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما ود كانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجوف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت "صحيح البخاري (الجزء الخاص في التفسير) ج ٤ ص: ١٨٧٣ باب ولا تذرن ودا ولا سواعا ولايغوث ويعوق – حديث رقم (٤٦٣٦).

العالمين﴾(سورة آل عمران : آية ٩٧،٩٦) .

فكلمة (الناس) وتكرارها ، وكلمة (العالمين) توضحان بجلاء عالمية المكان، فهو مكان مبارك تهوى إليه أفئدة الناس قبل أجسادهم، ويرتبط البشر به، ففيه العبادة الجامعة التي لا تصح إلا فيه وهي (الحج)، ذلك الركن الخامس من أركان الإسلام.

كما بين الحق سبحانه وتعالى دور الكعبة المشرفة في الأرض فقال :(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (المائدة:٩٧) .

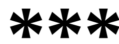
وتميّزت مكة المكرمة بميزات كثيرة، منها أنها تقع في منطقة تعد ملتقى قارات العالم القديمة الثلاثة : آسيا وأفريقيا وأوربا.فمكة في موقع متوسط قديماً ،وهي كذلك أيضاً في عالمنا الحديث،لأنها توجد في قارة آسيا التي يفصلها عن أفريقيا فاصل مائي يسير هو البحر الأحمر،ولا يفصلها عن أوربا سوى البحر المتوسط، فإذا تم الاتصال بأوربا فقد أمكن الاتصال ببقية أجزاء العالم الحديث[1].

وجدير بالذكر هنا أن البحوث العلمية الحديثة كشفت أن الكعبة المشرفة هي مركز الأرض، باستخدام برامج ذات تقنيات

(١) جغرافية المملكة العربية السعودية لمحمود سيف: ص ١١ .

عالية لتحديد الإحداثيات وبيان خطوط الطول ودوائر العرض، وتأكد لدى الباحثين أن مكة المكرمة تقع وسط دائرة تضم قارات العالم الست ، بل كشفت الأبحاث أن مركز تلاقي الإشعاعات الكونية هو مكة المكرمة .

ولعل في قوله سبحانه : (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ) (الشورى:٧) . ما يؤكد الحكمة الإلهية من اختيار مكة المكرمة ليكون موضع البيت الحرام أو الكعبة المشرفة فيها ، واختيار مكة المكرمة لتكون نواة لنشر رسالة الإسلام للعالم كله، وفي ذلك من الإعجاز العلمي الحديث ما يثبت أفضلية مكة على سائر البقاع[١] .



(١) الإعجاز العلمي في القرآن والسنة والنبوية لمحمد كامل عبد الصمد :، ص ١١٢ .

المبحث الثاني

الحج في الشرائع الإلهية

(أ) الملائكة والحج إلى بيت الله الحرام :

تبدأ العلاقة ببيت الله الحرام قبل نزول الشرائع الإلهية، حيث تشير عدة روايات إلى أن الملائكة عليهم السلام هم أول من طاف بالبيت، وهذا مما يؤكد بناءه قديما، وفيما يلي نورد بعض هذه الروايات :

عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : " ثم كان موضع البيت في زمن آدم شبرا أو أكثر علما فكانت الملائكة تحجه قبل آدم ثم حج آدم فاستقبلته الملائكة فقالوا : يا آدم من أين جئت؟ قال : حججت البيت . فقالوا : قد حجته الملائكة قبلك "[1] وفي رواية ابن عباس رضي الله عنهما أن الملائكة عليهم السلام قالت لآدم : "يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام"[2] .

وفي رواية عن محمد بن كعب القرظي أن الملائكة عليهم السلام قالوا لآدم عليه السلام : بر نسكك، "لقد حججنا قبلك بألفي عام"[3] .

---

(١) سنن البيهقي الكبرى ج ٥ ص: ١٧٦ حديث رقم (٩٦١٦) .

(٢) العلل المتناهية ج ٢ ص: ٥٧٠ : ٥٧١ " حديث في حج آدم عليه السلام : حديث رقم (٩٣٧) .

(٣) مسند الشافعي ج ١ ص: ١١٦ .

(ب) آدم عليه السلام أول حجاج بيت الله الحرام من البشر :

عد أول حجاج بيت الله الحرام من بني البشر هو آدم عليه السلام، حيث تؤكد الروايات العديدة أن الملائكة عليهم السلام أعلموه موضع الكعبة [١]، وعلموه ما يقول[٢]، وأنه أتاه ألف آتية [٣]، وأنه عليه السلام حج أربعين مرة على قدميه [٤]، وأنه نزل بالحجر الأسود من الجنة [٥]، وتصف بعض هذه الروايات البيت [٦]

(١) سبقت رواية ابن عباس رضي الله عنهما التي تشير إلى ذلك (الطبقات الكبرى ج ١ ص : ٣٨).

(٢) قدم آدم مكة فتلقته الملائكة فقالوا بر حجك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام قال: فما كنتم تقولون حوله؟ قالوا :كنا نقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر .وكان آدم إذا طاف بالبيت قال هؤلاء الكلمات فكان يطوف بالبيت سبعة أسابيع بالليل وخمسة بالنهار . انظر : العلل المتناهية ج ٢ ص: ٥٧٠ : ٥٧١ " حديث في حج آدم عليه السلام : حديث رقم (٩٣٧) .

(٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : " ثم إن آدم أتى البيت ألف أتية، لم يركب قط فيهن من الهند على رجليه " صحيح ابن خزيمة ج ٤ ص: ٢٤٥ باب عدد حج آدم صلوات الله عليه وصفة حجه، حديث رقم (٢٧٩٢).

(٤) شعب الإيمان ج ٣ ص: ٤٣٤حديث رقم (٣٩٨٨) . والطبقات الكبرى ج ١ ص: ٣٥ .

(٥) في روايتين لابن عباس رضي الله عنهما إحداهما مرفوعة تشير إلى أن الحجر الأسود نزل من السماء "وهو يتلألأ كأنه لؤلؤة بيضاء فأخذه آدم فضمه إليه استئناسا به ثم أخذ الله عز وجل من بني آدم ميثاقهم فجعله في الحجر الأسود " (انظر : العلل المتناهية ج ٢ ص: ٥٧٠ : ٥٧١ " حديث في حج آدم عليه السلام : حديث رقم (٩٣٧)) . والرواية الأخرى تشير إلى أن آدم عليه السلام "لما حج آدم وضع الحجر الأسود على أبي قبيس فكان يضيء لأهل مكة في ليالي الظلم كما يضيء القمر فلما كان قبيل الإسلام بأربع سنين وقد كان الحيض والجنب يصعدون إليه يمسحونه فاسود فأنزلته قريش من أبي قبيس "(انظر : الطبقات الكبرى ج ١ ص: ٣٥ : ٣٨) .

(٦) " عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :كان البيت قبل هبوط آدم عليه السلام ياقوتة من يواقيت الجنة، وكان له بابان من زمرد أخضر باب شرقي وباب غربي، وفيه قناديل من الجنة، والبيت المعمور الذي في السماء يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون فيه إلى يوم القيامة =

وشكله وحجمه في ذلك الزمان [١]، والذي يعنينا من كل ذلك التأكيد على أن آدم عليه السلام قد حج إلى بيت اللّه الحرام .

(ج) ما من نبي إلا حج :

تؤكد الروايات أن الأنبياء عليهم السلام قد حجوا إلى بيت اللّه الحرام فعن "ابن عمر رضي اللّه عنهما أن البيت رفع في الطوفان فكان الأنبياء بعد ذلك يحجونه ولا يعلمون مكانه حتى بوأه اللّه لإبراهيم فبناه على أساس آدم"[٢].

و" عن ابن عباس رضي اللّه عنهما أنه قال : ثم لقد سلك فج الروحاء سبعون نبيا حجاجا عليهم ثياب الصوف ولقد صلى في مسجد الخيف سبعون نبيا . وعن عروة بن الزبير أنه قال ما من نبي إلا وقد حج البيت إلا ما كان من هود وصالح ولقد حجه نوح فلما كان من الأرض ما كان من الغرق أصاب البيت ما أصاب الأرض وكان البيت ربوة حمراء فبعث اللّه هودا عليه السلام فتشاغل بأمر قومه حتى قبضه اللّه إليه فلم يحجه حتى مات فلما بوأه اللّه لإبراهيم عليه السلام حجه ثم لم يبق نبي بعده إلا حجه "[٣] .

=

حذاء الكعبة الحرام " .العلل المتناهية ج ٢ ص: ٥٧٠ : ٥٧١ " حديث في حج آدم عليه السلام : حديث رقم (٩٣٧) .

(١) عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول اللّه ﷺ قال : ".. كان موضع البيت في زمن آدم شبرا أو أكثر، علما ، فكانت الملائكة تحجه قبل آدم ثم حج آدم ..".سنن البيهقي الكبرى ج ٥ ص: ١٧٦ حديث رقم (٩٦١٦) و شعب الإيمان ج ٣ ص: ٤٣٤ .

(٢) شرح الزرقاني ج ٢ ص: ٣٩٧.

(٣) سنن البيهقي الكبرى ج ٥ ص: ١٧٧ حديث رقم (٩٦١٨).

و"عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : .. حج موسى بن عمران عليه السلام في خمسين ألفا من بني إسرائيل وعليه عباءتان قطوانيتان وهو يلبي لبيك اللهم لبيك لبيك تعبدا ورقا لبيك أنا عبدك أنا لديك لديك يا كشاف الكرب قال : فجاوبته الجبال . قال الشافعي رحمه الله : ولم يحك لنا عن أحد من النبيين ولا الأمم الخالين أنه جاء البيت أحد قط إلا حراما [١] ولم يدخل رسول الله ﷺ مكة علمناه إلا حراما إلا في حرب الفتح " [٢].

ورواية الشافعي في "الأم" تضيف بعض الزيادات، حيث يقول فيها :"يحكى أن النبيين كانوا يحجون فإذا أتوا الحرم مشوا إعظاما له، ومشوا حفاة، ولم يحك لنا عن أحد من النبيين ولا الأمم الخالية أنه جاء أحد البيت قط إلا حراما ولم يدخل رسول الله ﷺ مكة علمناه إلا حراما إلا في حرب الفتح . فبهذا قلنا إن سنة الله تعالى في عباده أن لا يدخل الحرم إلا حراما"[٣].

(د) وحدة شعيرة الحج في الشرائع الإلهية وتطور مظهرها عبر التاريخ:

قال الإمام الشافعي رحمه الله عند قوله تعالى لإبراهيم خليله : (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ

(١) حراما أي محرما .

(٢) سنن البيهقي الكبرى ج ٥ ص: ١٧٧ حديث رقم (٩٦١٩) . (حراما أي محرما) .

(٣) الأم للشافعي ج ٢ ص: ١٤١.

فَجٍّ عَمِيقٍ) (الحج:٢٧) : "لما أمر بهذا إبراهيم عليه السلام وقف على المقام فصاح صيحة عباد الله أجيبوا داعي الله، فاستجاب له حتى من في أصلاب الرجال وأرحام النساء، فمن حج البيت بعد دعوته فهو ممن أجاب دعوته ووافاه من وافه يقولون لبيك داعي ربنا لبيك " [١].

وقال أيضا عند قوله تعالى : (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)(آل عمران: من الآية٩٧) الآية دلالة كتاب الله عز وجل فينا وفي الأمم على أن الناس مندوبون إلى إتيان البيت بإحرام [٢].

وتشير الروايات إلى أن آدم عليه السلام كان يطوف بالبيت محاكيا فعل الملائكة عليهم السلام، وقد سألهم عليهم السلام عما كانوا يقولون حول البيت، "قالوا :كنا نقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر .وكان آدم إذا طاف بالبيت قال هؤلاء الكلمات فكان يطوف بالبيت سبعة أسابيع بالليل وخمسة بالنهار " [٣].

وفي زمن نبي الله إبراهيم عليه السلام طاف الناس بالبيت، وسعوا بين الصفا والمروة، ووقفوا بعرفة، واستمر الحال كذلك إلى أن فشت فيهم عبادة الأصنام، وانتشرت الضلالات، ومع أنهم تمسكوا

---

(١) الأم ج ٢ ص: ١٤١.

(٢) الأم ج ٢ ص: ١٤١.

(٣) انظر : العلل المتناهية ج ٢ ص: ٥٧٠ : ٥٧١ " حديث في حج آدم عليه السلام : حديث رقم (٩٣٧) ..

ببعض ما كان عليه الناس في عهد خليل الله إبراهيم عليه السلام من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة والمزدلفة وهدي البدن والإهلال بالحج والعمرة، إلا أنهم أدخلوا في هذه العبادة ما ليس منها، فكانت كنانة وقريش إذا أهلوا قالوا : لبيك اللهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك . فيوحدونه بالتلبية ثم يدخلون معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده، يقول الله تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ : (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ باللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) (يوسف:١٠٦) أي ما يوحدونني لمعرفة حقي إلا جعلوا معي شريكاً من خلق [١].

ويعد موضوع "الحمس"[٢] من أشهر ما عرف عن العرب في جاهليتهم ؛ لذا نفرد له السطور التالية:

الحُمْس عند العرب قبل الإسلام :

كان الناس في الجاهلية– ومنهم أهل الحُمس [٣]، قد غيروا كثيراً مما ترك إبراهيم عليه السلام من الحنيفية الخالصة، حتى قال فيهم الله عز وجل:(وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ البيتِ إلاَّ مُكَاءً

---

(١) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله : ج١ ص: ٧٨.

(٢) "الحُمْس" بضم الحاء من التحمس، وهو التشدد، أي أنهم قوم تشددوا في دينهم، وشددوا على الناس، قبل أنفسهم . وللحمس معان أخرى . انظر : لسان العرب ج ٦ ص: ٥٧، ٥٨، باب حمس .

(٣) أهل الحمس هم قريش وبعض القبائل الأخرى التي لها مع قريش صلة قرابة أو مصاهرة؛ مثل: كنانة، وخزاعة، والأوس، والخزرج، وثقيف.

وتصدِيَةً)(سورة الأنفال ٣٥). ويمكن إجمال أهم أعمال الحُمْس في الحج (قبل الإسلام) في أمور منها:

– الطواف في ثيابهم فقط أوعرايا: أعطى الحُمْس أنفسهم الحق من دون الناس أنه لا يجوز لغيرهم أن يطوف إلا في ثيابهم هم، فإن خالفوا، وطافوا في غير ثياب الحُمْس، ألقوها بعد ذلك ولم ينتفعوا بها!![1]. وعن عروة بن الزبير رضي الله عنه قال: "كان الناس يطوفون في الجاهلية عراة إلا الحمس والحمس قريش وما ولدت وكانت الحمس يحتسبون على الناس يعطي الرجل الرجل الثياب يطوف فيها وتعطي المرأة المرأة الثياب تطوف فيها فمن لم يعطه الحمس طاف بالبيت عريانا وكان يفيض جماعة الناس من عرفات ويفيض الحمس مع جمع"[2].

– الإفاضة دون الناس من مزدلفة لا من عرفات: عن عائشة رضي الله عنها قالت: " كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يسمون الحمس، وكان سائر العرب يقفون بعرفات، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها، فذلك قوله تعالى: (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس) "[3].

وجاء الإسلام ليمحو تلك الاعتقادات الباطلة، ويجعل الحج

(١) انظر سيرة ابن هشام: ١٨٧/١. و الإكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ج: ١ ص: ١٦٦.

(٢) صحيح البخاري ج: ٢ ص: ٥٩٩ باب الوقوف بعرفة، حديث رقم (١٥٨٢).

(٣) صحيح البخاري ج ٤ ص: ١٦٤٣ – باب ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ، حديث رقم (٤٢٤٨) ..

صورةً للمساواة بين الناس، بدلاً من كونه صورةً للعنصرية والتمييز بين العباد؛ فقد راح المؤذنون عام حجة أبي بكر بالناس (سنة ٩ هجرية) يبلغونهم بتحريم الحج عرايا "ولا يطوف بالبيت عريان"[١] ؛ بل مُنِعَ الناس أيضًا من الحج في ثيابهم المعتادة، وفُرِضَ عليهم أن يلبسوا ملابس واحدة متشابهة، وهي ثياب الإحرام: رداء وإزار، ليست مُحيطَة ولا مَخِيطَة، كما نُهُوا عن تغطية رءوسهم إلاَّ النساء؛ فيلبسن ما اعتدْنَه من الملابس، ولا يكشِفْنَ سوى الوجه والكفين.

– الحاج من أهل الحِلِّ لا يأكل من طعام جلبه من الحِلِّ إلى الحرم: فقد ذكر ابن إسحاق عن الحُمْس أنهم قالوا: "لا ينبغي لأهل الحِلِّ أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحِلِّ إلى الحرم، إذا جاءوا حُجَّاجًا أو عُمَّارًا". ونزل القرآن يلغي هذه العادات الجاهلية في قول الله– عز وجل–: "يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّه لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ . قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ للَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَومَ القِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَومٍ يَعْلَمُونَ" فوضع الله– تعالى– أمر الحُمْس [٢] .

– السعي بين الصفا والمروة: سجّل القرآن الكريم هذا الركن في قوله تعالى : "إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ البَيْتَ أَوِ

---

(١) رواه البخاري في كتاب الحج.

(٢) سيرة ابن هشام ١/١٨٦–١٨٨.

اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا..." (سورة البقرة ١٥٨). وقد روى البخاري أن هذه الآية نزلت "في الذين كانوا يتحرجون أن يطوفوا في الجاهلية بالصفا والمروة، والذين كانوا يطوفون ثم تحرجوا أن يطوفوا بهما في الإسلام، من أجل أن الله أمَرَ بالطواف بالبيت ولم يذكر الصفا.." [(١)].

ويبدو من الأحاديث والآثار العديدة الواردة في هذه المسألة، أن الذين تحرَّجوا من السعي بين الصفا والمروة في الجاهلية والإسلام، إنما فعلوا ذلك لأنهم كانوا في الجاهلية إذا بدءوا فأَهَلُّوا لبعض أصنامهم تحرجوا من السعي فامتد ذلك بهم إلى الإسلام فكان في الأنصار وغسان كما تقول عائشة- رضي الله عنها- أن "مَن أحرم لمناة لم يَطُفْ بين الصفا والمروة"، وإنهم سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك حين أسلموا فأنزل الله عز وجل في ذلك : (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ) (البقرة:١٥٨) [(٢)].

وأما الذين تحرَّجوا من السعي بين الصفا والمروة في الإسلام وحده فذلك- كما يوضح حديث البخاري السابق- أتى مِن "أن الله تعالى أمر بالطواف بالبيت ولم يذكر الصفا"، ولعل مما قوَّى ذلك

---

(١) رواه البخاري في كتاب الحج.

(٢) صحيح مسلم ج ٢ ص: ٩٢٨ : ٩٣٠، باب بيان أن السعي بين الصفا والمروة ركن لا يصح الحج إلا به، حديث رقم (١٢٧٧).

لديهم ما ارتبط بالصفا والمروة في الجاهلية من مظاهر وثنية؛ فقد قال عامر الشعبي: "كان على الصفا في الجاهلية صنم يُسمَّى "إسافا"، وعلى المروة صنم يسمى "نائلة"؛ فكانوا يمسحونهما إذا طافوا؛ فامتنع المسلمون من الطواف بينهما لأجل ذلك، فنزلت الآية" [١] .

الحج في الإسلام استمرار للشرائع الإلهية السابقة وتصحيح للمعتقدات الباطلة :

أرسل الله سبحانه وتعالى رسوله محمداً ﷺ بالشريعة الخاتمة وخاطبه بقوله: (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً . وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً . رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً) (النساء:١٦٣:١٦٥)

فالدين في حقيقته واحد، قال تعالى :(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) (الأنبياء:٢٥) .وقال سبحانه :(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) (آل عمران:١٩) .

وإذا كان الدين واحداً عبر تاريخ الإنسانية وجاءت شريعة

---

(١) تفسير القرطبي ١/ ٥٦٠.

الإسلام تنسخ ما قبلها من الشرائع . وتتوافق مع ما اقتضاه التطور العقلي للإنسان وتصلح لكم زمان ومكان، وأعلن القرآن الكريم أنها الشريعة المقبولة عند الله ولا يقبل غيرها(وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (آل عمران:٨٥) ، فإن الحج الذي هو من شريعة الله في الأمم السابقة وقد جاء به الإسلام يعد من الشعائر الماضية عبر التاريخ، وقد أظهر الإسلام بوجود هذه الشعيرة فيه مدى ترابط الشرائع الإلهية في وحدة مصدرها، ووحدة مقصدها .

إن من أسرار الحج وحكمه البالغة التي أظهرها الإسلام أنه عبادة ترتبط بمدى الإذعان لله رب العالمين، وتدرب العبد على كيفية السمع والطاعة لله وحده في أوامره ونواهيه، وهذا يشير إلى سر من أسرار استمرار هذه العبادة عبر التاريخ وبقائها في الشرائع الإلهية .

وحينما جاء الإسلام واجه ضراوة الجاهلية في محاولتها الحفاظ على كيانها دون أن تتعقل ما جاءها به الرسول من نهج يضبط سير الحياة وإيقاعها منفصلا عن المواريث الخاطئة، ويطلب الحق من منبعه الأصيل (الوحي الإلهي)، ويعد أصول المفاضلة بين الناس هي ما نبع من جهد الفرد وتميزه في التعامل الصحيح مع الكون وخالقه والناس من حوله.

لقد جاء الإسلام فمحا الجاهلية وحساباتها من قلوب الناس، وألغى الأفعال والعادات التي يرفضها الطبع المستقيم، مثل: وأد البنات، والطواف بالبيت عرايا.. وأحل محلها كل ما هو عظيم وسامٍ،

وكـان لابـد للإسـلام مـن اقـتلاع جـذور الوثنيـة والجاهليـة الـتي زحفـت حتى طوقت البيت الحرام، وشوهت فريضة الحج العظيمة.

وقـد عمـدت الرسـالة الإسـلامية إلى الانحرافـات العقائديـة والـشرور الأخلاقيـة؛ فمحتهـا، واحتفظـت بالفـضائل والأخـلاق الحـسنة، وأتم الإسـلام ذلـك كلـه، وأسَّـسَه علـى الاعتقـاد الـصحيح الـذي يحـدد أسس التوجه الإنساني وغاياته.



المبحث الثالث

أثر الحج في تحقيق ريادة مكة المكرمة

(أ) أثر الحج في تحقيق ريادة مكة قبل الإسلام

مكانة مكة قبل الإسلام في قلوب أهلها وفي قلوب العرب جميعا .

فسر المؤرخون واللغويون العرب اسم "مكة" تفسيرات كثيرة، لغوية وغير لغوية، استنبطوها من مكانة الكعبة المشرفة وقدسيتها في نفوس العرب [١].

وقد "اتصلت نهضة مكة بقيام الكعبة فيها، فإن اهتمام العرب بالبيت الحرام وتعظيمهم له والحج إليه هو السبب الأساسي في قيام هذه المدينة وتقدمها "[٢].

كانت مكة "ملتقى طرق القوافل بين الجنوب والشمال والشرق والغرب، وكانت محطة لازمة لمن يحمل التجارة من الشمال إلى الجنوب، وكانت القبائل تلوذ منها بمثابة مطروقة تتردد عليها . وقد رغب القبائل فيها أن مكة لم تكن فيها سيادة قاهرة على تلك القبائل في باديتها أو رحلاتها، فليست في مكة دولة كدولة التبابعة في اليمن، أو مملكة المناذرة في الحيرة، أو الغساسنة في الشام . وليس من وراء أصحاب الرياسة فيها سلطان كسلطان دولة الروم أو الفرس

(١) الروض الأنف للسهيلي : ج١ ص ٨٢، ٨٣ .

(٢) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول: أحمد إبراهيم الشريف، دار الفكر العربي، بدون تاريخ، ص ١٨٣ .

أو الحبشة وراء الإمارات المتفرقة على الشواطئ أو بين بوادي الصحراء، فهي مثابة عبادة وتجارة، وليست حوزة ملك يستبد بها صاحب العرش ولا يبالي من عداه ، فلم تكن قيصرية، ولا كسروية، ولا نجاشية، وإنما كانت مكة عربية لجميع العرب، ولهذا تمت لها الخصائص التي كانت لازمة لمن يقصدونها، ويجدون فيها من يبادلهم ويبادلونه على حكم المنفعة المشتركة لا على حكم القهر والإكراه " [١].

برع أهل مكة في التجارة، ووجدوا في مكاسبها مأمنهم من الجوع والخوف، قال تعالى : (لِإِيلافِ قُرَيْشٍ . إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ . فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ .الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ) (سورة قريش) .فحالف أهل مكة القبائل، وأفادوا من احترام العرب للكعبة، وأقاموا أسواقا ينشط فيها الشعر والتجارة، ومن هذه الأسواق : عكاظ، وذو المجاز، والمجنة، وفيما يلي نلقي الضوء على هذه الأسواق وأثرها في تحقيق الريادة الأدبية والاقتصادية والسياسية لمكة المكرمة .

وكان العرب "جميعهم أو القسم الأكبر منهم، سواء منهم الدانون أو القاصون كانوا يأتون مكة ويمارسون مع أهلها طقوس الحج قبل البعثة، فكان يأتي موسم الحج أناس من اليمن ونجد ومشارف الشام ومشارف العراق، يأتي بعضهم للمفاخرة، وبعضهم

(١) الشريف : مرجع سابق، ص ١٨٥ .

للخطابة وإنشاد الشعر، وبعضهم لحل المشكلات، وبعضهم لزيارة الكعبة وأداء مناسك الحج، وقد استمر العرب يحجون حتى بعد فتح مكة، ويمارسون تقاليدهم القديمة إلى أن أمر النبي ﷺ بتخليص الحج من ذلك، امتثالا لأمر الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا)(التوبة: من الآية٢٨) . وهو العام التاسع للهجرة "[١] .

أثر الحج في ريادة مكة :

لقد كان لشعيرة الحج التي يؤديها العرب أثر في تحقيق ريادة مكة المكرمة قبل الإسلام، فقد كان الناس يأتون للحج، ويذهبون في موسم الحج لسوق عكاظ وغيره، كما أنهم كانوا يضعون أصنامهم في الموسم عند الكعبة .

ويمكن القول : إن الحج أدى إلى وجود احتكاك اقتصادي وتجاري وديني ولغوي داخل مكة المكرمة، ولعل من أهم النتائج التي ترتبت على ذلك على سبيل المثال : هيمنة لغة قريش على سائر لغات العرب، وهذا أعطاها شيئا من التميز، وزاد من تميزها أن نزل القرآن بها، وفي هذا دلالة على هيمنة مكة وريادتها اللغوية، فضلا عن ريادتها الدينية . حيث كان العرب يأتون بأصنامهم فيضعونها عند الكعبة تأكيدا لشرفه .

---

(١) مكة والمدينة في الجاهلية والإسلام، ص ١٩٤ .

لقد كانت مكة المكرمة قبل الإسلام علما في جزيرة العرب، فأمها الناس من كل حدب وصوب، وبلغت شهرتها بلاد الفرس، و" كان الوافدون إلى أسواق مكة مشركين ونصارى ويهودا، يأتي بعضهم موسم الحج للتبشير والاتجار، فكان قس بن ساعدة الإيادي من نصارى العرب يخطب في مواسم الحج " (١).

كما كان في مكة من يحكي مغامراته في بلاد فارس مثل النضر بن الحارث، وعرف الفرس مكة، وقد التقى أبو سفيان بهرقل الروم الذي ناقشه في شأن النبي ﷺ، وعرفت الحبشة مكة، وكان أهل مكة يذهبون بتجارتهم إلى الحبشة ويأتي الأحباش إلى مكة، وبسبب معرفة مكة بالحبشة كان خروج عدد من المسلمين الأوائل إلى الحبشة مهاجرين بدينهم من تعذيب أهل مكة .

وبقيت مكة المكرمة تأوي إليها الأفئدة، ويأتيها طلاب التجارة والثقافة والكهانة وغيرها، بل كانت ملاذا لمن يريد إصلاح ذات البين، فقد جاءها جماعة من أهل يثرب للإصلاح بين قبيلتي الأوس والخزرج، فالتقوا برسول الله ﷺ الذي عرض عليهم الإسلام، فكان خيرا لهم ولأهليهم من الدنيا وما فيها.

لقد شهدت مكة في موسم الحج، وبخاصة في أسواقها (مثل عكاظ ومجنة وذي المجاز) حركة تجارية، وزاد الأمر إلى أمور أخرى لا علاقة لها بالبيع والشراء، " وهي المفاخرات والمباهاة

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ، ج ٢ ص ٢٣٢ : ٢٣٤ .

والمسابقات في قول الشعر، وافتداء الأسرى، وكثيرا ما كانت تعقد فيها مجالس الصلح والتحكيم بين القبائل فتحل المشاكل المعقدة، والناس مطمئنون إلى حرمة الأشهر الحرم التي تنعقد فيها السوق، فهي مجتمعات سياسية ذات أهمية، ومؤتمرات تقرر فيها كثير من الأمور التي لها صلة بسياسة القبائل وبصلاتها بعضها ببعض [١].

لقد كانت عكاظ مجالا للنشاط الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، فيأتي الخطباء والحكماء، و كانت تحمل الديون والإتاوات إلى أصحابها، بل وبعض المبشرين إليها للدعاية لدياناتهم، فكانت في الحقيقة منتدى عاما يحوي كل نواحي النشاط الإنساني في الجزيرة العربية من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية [٢]..

(ب) أثر الحج في تحقيق ريادة مكة في الإسلام

تظهر أهمية الحج في تحقيق ريادة مكة المكرمة في عصر النبوة منذ بدأت البعثة النبوية، وانطلق الرسول ﷺ يدعو إلى الله تعالى، فكان موسم الحج من أهم ميادين دعوته، بل كان الحج من أسباب فتح جديد للإسلام، حيث لقي النبي ﷺ ستة نفر من يثرب كانوا نواة لدولة الإسلام الأولى في المدينة المنورة، وقد انتقل الرسول ﷺ إليها .

كما أن موسم الحج في عصر النبوة كان دليلا على تأكيد

(١) مكة والمدينة في الجاهلية والإسلام، ص ١٠٠ .

(٢) مكة والمدينة في الجاهلية والإسلام، ص ١٠١ .

ريادة مكة وعالميتها، ففي حجة الوداع كانت الخطبة الجامعة التي عبر فيها الرسول ﷺ عن جوامع هذا الدين، ودعا فيها المسلمين إلى الخير، وحدد أمورا كثيرة لم يحددها إلا في هذا الموضع بشكل واضح، وقد بين في خطبته هذه مكانة الكعبة المشرفة وربطه ذلك ببيان مكانة الوقت الذي حدث المسلمين فيه وهو موسم الحج، ومكانة البلد الذي هم فيه وهو مكة المكرمة .

إن الحج في الإسلام يعد وسيلة لتحقيق الفوائد الروحية والأدبية والاجتماعية والاقتصادية، وتنطق بذلك هذه الآية:(وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ) (الحج:٢٧ ، ٢٨).

لقد أدى الحج في الإسلام إلى تغيير بعض العادات التي كانت سائدة قبل الإسلام مثل: عادة الحمس، كما وضعت سدنة الكعبة في موضعهم الصحيح، وأعطت لكل ذي حق حقه، وأظهرت أحكاما شرعية جديدة ينبغي الالتزام بها، فمن ذلك :(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (المائدة:٩٧)

كما أظهر الحج لمكة ريادتها في مظاهر أخرى في عصر النبوة مثل : مجالس الشعر وتحويلها إلى مجالس ذكر لله وعبادة وطاعة . وظهور مصطلحات جديدة . وإظهار سماحة الدين ويسره، فما

كان يسأل رسول الله ﷺ عن شيء إلا قال : افعل ولا حرج . وإظهار السلوك العملي للرسول ﷺ . فضلا عن الاحتكاك بين الناس الذي يؤدي إلى الاحتكاك اللغوي والتجاري والديني وغيره .

ولقد أقبل المسلمون الأوائل على الإيمان الصادق، ونسوا أو تناسوا الشعر، وارتبطت قلوبهم بكتاب الله تعالى، يقول جندب بن عبد الله رضي الله عنه:"كنا مع النبي ﷺونحن فتيان حزاورة_ أي أشداء أقوياء – فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن،ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانا"[1]

لقد أقبلوا على القرآن الكريم فحفظوه كحفظهم للمعلقات التي كان الشعراء يتبارون بها في موسم الحج، وعلقوها على أستار الكعبة .

وفقد سوق عكاظ مكانته التي عرفت في العصر الجاهلي، وأصبح حديث مكة عن محمد ﷺ والدين الجديد والقرآن الكريم الذي يوحى إليه، وأثره في النفوس، وأصبح حفظ القرآن معلقا في القلوب، حل محلها القرآن الكريم الذي جعل أبا جهل وصاحبين له من صناديد قريش يذهبون سرا للاستماع إلى رسول الله ﷺ، ثم يتعاهدون ثلاثتهم على عدم العود ولكنهم يعودون، وقد تأثر الطفيل بن عمرو الشاعر اللبيب بالقرآن الكريم الذي فاق الشعر روعة وحسن بيان كما قلنا آنفا . ولم نعد نسمع عن الشعر والشعراء في مكة ما

---

(١) سنن ابن ماجة : ح ٦١ .

كنا نسمع قبل بعثته ﷺ من إقبال على هذه الثقافة التي كانت تحكي حياة هذا المجتمع، وتعد من أشهر سماته .

لقد أحب الرسول ﷺ، وأعلن ذلك في الحديث الذي سبق ذكره في مقدمة هذه الدراسة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «وقف النبيّ ﷺ على الحزورة فقال: علمت أنك خير أرض الله وأحب الأرض إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت»[١].

وخلاصة القول : كان عصر النبوة عصر ريادة دينية لمكة المكرمة، وقد أكد هذه الريادة خطبة حجة الوداع التي بين فيها ﷺ حرمة مكة المكرمة وفضلها، ووعظ الناس مواعظ جامعة تتعلق بدينهم ودنياهم [٢]. ثم قال : ألا هل بلغت قالوا نعم قال فليبلغ الشاهد الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع وقال ﷺ : ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن وفي لفظ ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث عني وهو متكئ على أريكته فيقول بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه حلالا استحللناه وما وجدنا فيه حراما حرمناه وان ما حرم رسول الله كما حرم الله [٣].

ومن ذلك ما روي "عن أبي بكرة عن النبي ﷺ أنه قال : ثم إن

(١) رواه أحمد: في مسنده حديث رقم (١٨٣٦٦) . قال عبدالرزاق: والحزورة عند باب الحناطين .

(٢) راجع : تفسير ابن كثير ج١ ص: ٤٦٨ ..

(٣) لسان الميزان ج ١ ص: ٣ .

الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب شهر مضر الذي بين جمادى وشعبان ثم قال أي شهر هذا قلنا الله ورسوله أعلم قال فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال أليس ذا الحجة قلنا بلى قال : فأي بلد هذا ؟ قلنا الله ورسوله أعلم قال فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال أليس البلدة ؟ قلنا بلى قال فأي يوم هذا قلنا الله ورسوله أعلم قال فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال أليس يوم النحر قلنا بلى يا رسول الله قال فإن دماءكم وأموالكم قال محمد وأحسبه قال وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم فلا ترجعن بعدي كفارا أو ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض ألا ليبلغ الشاهد الغائب فلعل بعض من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه ثم قال ألا هل بلغت قال بن حبيب في روايته ورجب مضر وفي رواية أبي بكر فلا ترجعوا بعدي " [١].

واستمر أثر الحج في ريادة مكة المكرمة منذ بدأت الخلافة الإسلامية على يد الراشدين بعد وفاة الرسول ﷺ، غير أن هذه الريادة تقلصت في الجانب الديني فقط، أما الريادة السياسية فقد ارتبطت بعاصمة دولة الخلافة، وانتقلت معها من المدينة المنورة إلى الكوفة، ثم إلى دمشق، ثم إلى بغداد، ثم سامراء، ثم بغداد، ثم القاهرة، وأخيرا استقرت في الأستانة، حيث كانت دولة الخلافة العثمانية .

(١) صحيح مسلم ج: ٣ ص: ١٣٠٥ ، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، حديث رقم (١٦٧٩) .

لقد كان أثر الحج واضحا عبر تاريخ دولة الخلافة الإسلامية (الراشدة أو الأموية أو العباسية أو العثمانية)، كان هذا الأثر واضحا في تحقيق ريادة مكة الدينية، حيث كانت هذه الدول تستمد قيمتها الدينية، وهيمنتها الأدبية والسياسية من سيطرتها على المدينتين المقدستين (مكة المكرمة والمدينة المنورة)، ويتضح ذلك حين سيطرت دولة الأيوبيين على الحجاز، فارتفعت مكانتها، وهيبتها في العالم الإسلامي آنذاك على دولة الخلافة العباسية (على الرغم من كون الأيوبيين جزء من دولة الخلافة العباسية، بل إنه لما تمكن أل سعود من دخول الحجاز وضمها للدولة السعودية الأولى، كان من نتائج ضم الحجاز ارتفاع هيبة الدولة السعودية، وانخفاض هيبة الدولة العثمانية، مما دفع العثمانيين إلى إعلان المواجهة للدولة السعودية الأولى لإنهاء حكمها هناك [1].

وفي العصر الحديث ظهر أثر الحج في ريادة مكة المكرمة في عدة أمور، منها :

أصبحت مكة المكرمة سوقا تجارية كبرى في موسم الحج، وتحققت بذلك المعجزة القرآنية المتمثلة في قوله تعالى : (وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ) (القصص:٥٧) .

---

(١) تاريخ المملكة العربية السعودية : عبد الله الصالح العثيمين ، الطبعة ١٢ سنة ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م نشر مكتبة العبيكان — ج ١ ص : ٢٠٥ .

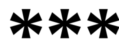
وأصبحت مكة المكرمة في موسم الحج أرضا خصبة لإظهار الاحتكاك اللغوي المتزايد بين أبناء الأمة أثناء الموسم . وكذلك الاحتكاك بين المذاهب الإسلامية . وصدق فيهم قوله تعالى : ()وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ) (الروم:٢٢) .

وباستضافة خادم الحرمين الشريفين حفظه الله لعدد من المسلمين من أجناس مختلفة للحج كل عام تحقيقا لقوله تعالى : (يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ)(الحج: من الآية٢٧) ، ووضعهم في مكان واحد تأكيدا على استمرار للتواصل الشعوري بين أبناء الأمة الإسلامية وتحقيق التواد والترابط .

وفيما تقوم به حكومة خادم الحرمين الشريفين من البث المباشر لكل مناسك الحج على كل القنوات وفي أنحاء العالم يؤكد شيئا من هذه الريادة ، حيث تتلقف هذا الحدث العظيم العديد من القنوات في مشارق الأرض ومغاربها .

إذن فهناك احتكاك ثقافي حين يجتمع عدد كبير من علماء المسلمين من أنحاء العالم. واحتكاك لغوي حين يجتمع المسلمون على اختلاف لغاتهم في موسم الحج مما يؤدي إلى مزيد من التأثير والتأثر في هذا المجال ، واحتكاك اجتماعي حين تتم عبادة واحدة وتختلف فيها الممارسات والسلوكيات ، واحتكاك تجاري أو اقتصادي حين يأتي إلى مكة في موسم الحج من كل أصناف التجارة العالمية . واحتكاك ديني حين يلتقي المسلمون على اختلاف مذاهبهم في موسم الحج .

وكل هذا يجعل إمكانية تحقيق الريادة قائمة . ويدعو إلى تقديم عدة توصيات ربما أفادت في هذا المقام، وهذا هو ما يرد خاتمة الدراسة .



الخاتمة

في ختام هذه الدراسة الموجزة يمكن استعراض أبرز نتائجها فيما يلي :

أولا : مفهوم لفظة "الحج" أشمل من غيرها من الألفاظ ذات الصلة (كالمنسك والشعيرة) التي تعبر عن تلك العبادة، وقد ثبت الإسلام هذا المفهوم، وهذا من دلائل شمولية هذا الدين .

ثانيا : شعيرة الحج قررتها الشرائع الإلهية عبر التاريخ ؛ تأكيدا لوحدة القصد والهدف وهو عبادة الله تعالى وطاعته سبحانه والانقياد له ؛ والتقرب إليه، وقد أمرهم الله تعالى بالاستقامة عليها، وحدد لها مكانا وزمانا ثابتين، قال تعالى : (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً)(آل عمران: من الآية٩٧)، وقال سبحانه: (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ)(البقرة: من الآية١٩٧) .

ثالثا : بني الملائكة عليهم السلام الكعبة المشرفة، وطافوا حولها، وجاءها آدم عليه السلام، وطاف كما فعلت الملائكة، وما من نبي من أنبياء الله تعالى إلا حج إليها عدا (هود وصالح ؛

لاهتمامهما بدعوة قومهما)، واستمر تعمير الكعبة عبر التاريخ إلى أن كانت توسعة خادم الحرمين الشريفين التي تعد أضخم توسعة في التاريخ .

رابعا : تميّزت مكة المكرمة بميزات كثيرة مكة المكرمة جغرافية ودينية، فقد أثبت العلم الحديث أنها تقع في مركز الكرة الأرضية مما يشير إلى جانب من جوانب الإعجاز العلمي الظاهر في قوله تعال عنها أنها (أُمَّ الْقُرَى) (الشورى:من الآية ٧) . وكان اختيارها لتكون موضع أول بيت وضع للناس في الأرض وهو البيت الحرام أو الكعبة المشرفة، كما شرفها الله تعالى باختيارها لتكون نواة لنشر رسالة الإسلام الشاملة للعالم كله . فهي تملك مقومات الريادة، ودلائل الاصطفاء الإلهي لها .

خامسا : التزم الناس بعبادة الله عن طريق أداء هذه الشعيرة الثابتة في كل الشرائع الإلهية، إلا أنهم بدلوا فيها وزادوا وأنقصوا وانحرفوا عن حقيقة العبادة، فلما جاء الإسلام صحح المعتقدات الباطلة، وبين حقيقة العبادة، وأعاد الناس إلى مقصدها الأساسي .

سادسا : كان أثر الحج واضحا في ريادة مكة المكرمة قبل الإسلام، فقد وفد الناس إلى مكة لأغراض سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية .

سابعا : جاء الإسلام فحقق الريادة لمكة ببعثة الرسول ﷺ، ثم بتأكيده ﷺ على حرمة هذا البلد ومكانتها في خطبة الوداع، وإن كانت مكانتها السياسية قد قلت عبر التاريخ حين انتقلت عواصم

دولة الخلافة الإسلامية إلى أماكن أخرى، إلا أن مكانتها الدينية استمرت قائمة، وستبقى بإذن الله تعالى .

ثامنا : إن مكة المكرمة اليوم تنطلق نحو تحقيق هذه الريادة من جديد، ففيها الحرم المكي الشريف ورابطة العالم الإسلامي وجامعة أم القرى ومعهد خادم الحرمين، وغيرها من المؤسسات والهيئات التي تعطيها صفة العالمية .

أما التوصيات والمقترحات فيمكن تحديدها في النقاط التالية :

(١) ضرورة إعادة النظر في مناهجنا الدراسية، بوضع دراسة عن مكة المكرمة تبين مكانتها، وتغرس في النفوس هيبتها

(٢) العمل الجاد من أجل إنشاء قمر صناعي إسلامي يبث الفكر الإسلامي الأصيل من خلال مكة المكرمة .

(٣) استمرار التعريف بمكة المكرمة وتهيئة النفوس، وبخاصة في مواسم الحج والعمرة لاحترام المكان ووضعه في مكانه اللائق به .

(٤) ينبغي أن تكون مكة المكرمة عاصمة دائمة للثقافة الإسلامية .

(٥) اهتمام اللغويين بدراسة المصطلحات الجديدة التي جاء بها الإسلام، وأحدث بها تطورا جديدا في المفاهيم، وأثر بهذه المصطلحات في سلوك الناس وعاداتهم .

(٦) دعوة إلى سوق إسلامية مشتركة .

(٧) دعوة إلى أن يكون هناك لقاء قمة إسلامي دوري في موسم الحج لمناقشة آلام الأمة الإسلامية وآمالها ، وذلك للأسباب التالية :

(أ) تحديد المكان وهو مكة إخراج للمسلمين من حرج تحديد أي مكان آخر .

(ب) اختيار مكة وفي وقت عبادة لمباركة أي عمل يعمله المسلمون، فالقلوب الموصولة بالله لا تعرف الغش ولا الخداع، ولا تكون سببا في ضياع أمتها .

(ج) اختيار موسم الحج ليكون مكان تجمع المسلمين ليشهدوا منافع لهم، لأن الحج يهذب النفس، ويعين على التجرد ، والبعد عن مطامع الدنيا ومطامحها ، مما يسهل أمر جمع الكلمة ووحدة الصف .

وأعتقد أن مستقبل هذا البلد الأمين هو ريادة الأمة الإسلامية كلها فكريا وثقافيا ، ويكون ذلك بعدة أمور منها : اهتمام المسؤولين بالثقافة الإسلامية الأصيلة وبثها عن طريق مكة المكرمة . والتوعية الإعلامية المستمرة لإظهار دور مكة المكرمة ومكانتها . وتحديد استراتيجية لإعادة وجه مكة الحضاري من جديد . وتفعيل دور المكتبات والمدارس والمؤسسات الثقافية الموجودة بمكة لتحقيق العالمية المنشودة .

ولن يتم ذلك إلا بصدق التوجه، ومضي العزم، وإدراك المسؤولية الإنسانية والإسلامية، وتضافر الجهود المخلصة، وطلب العون من الله رب العالمين .

والله من وراء القصد . وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

أهم المراجع والمصادر

(١) أبو السعود: محمد بن محمد العمادي أبو السعود (٩٥١هـ) : تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت .

(٢) أحمد : أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال (٢٦٦هـ)، مسائل الإمام أحمد، الدار العلمية، دلهي، سنة ١٩٨٨م، الطبعة الأولى، تحقيق : د.فضل الرحمن دين محمد .

(٣) الألوسي: محمود الألوسي أبو الفضل(١٢٧٠هـ) : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ .

(٤) ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (٥٩٧هـ) : العلل المتناهية في الأحاديث الواهية–دار الكتب العلمية– بيروت، سنة ١٤٠٣هـ – الطبعة : الأولى – تحقيق : خليل الميس .

(٥) ابن حجر: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي(٨٥٢هـ) : لسان الميزان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت،الطبعة الثالثة، سنة ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م، تحقيق : دائرة المعرف النظامية – الهند .

(٦) ابن سعد : محمد بن سعد بن منيع أبو عبدالله البصري الزهري (٢٣٠هـ) : الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ .

(٧) ابن كثير : إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء (٧٧٤ هـ) : البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت .

(٩) ابن كثير : إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء (٧٧٤ هـ) : تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم)، دار الفكر، بيروت، سنة ١٤٠١هـ .

(١٠) ابن ماجة : محمد بن يزيد بن ماجة أبو عبدالله القزويني (٢٧٥هـ) : سنن

ابـن ماجـه، دار الفكـر، بـيروت، تحقيـق: محمـد فـؤاد عبـد البـاقي، بـدون تاريخ .

(١١) ابـن منظـور: محمـد بـن مكـرم بـن منظـور الأفريقـي المـصري (٧١١هـ) : لـسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى .

(١٢) ابـن هـشام: عبـد الملـك بـن هـشـام بـن أيـوب الحمـيري المعافـري أبـو محمـد (٢١٣هـ): الـسيرة النبويـة –دار الجيـل– بـيروت سـنة ١٤١١هـ – الطبعـة : الأولى – تحقيق : طه عبد الرءوف سعد .

(١٣) البخـاري : محمـد بـن إسماعيـل أبـو عبـدالله البخـاري الجعفـي (٢٥٦هـ) : صـحيح البخـاري = الجـامع الـصحيح المختـصر دار ابـن كـثير ، اليمامـة ، بـيروت، سـنة ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م، الطبعـة : الثالثـة، تحقيـق : د. مـصطفى ديب البغا .

(١٤) البيهقـي : أبـو بكـر أحمـد بـن الحـسين البيهقـي(٤٥٨هـ) : سـنن البيهقـي الكـبرى، مكتبـة دار البـاز، مكـة المكرمـة، سـنة ١٤١٤ هـ– ١٩٩٤م، تحقيق : محمد عبد القادر عطا .

(١٥) البيهقـي : أبـو بكـر أحمـد بـن الحـسين البيهقـي(٤٥٨ هـ) : شـعب الإيمـان،دار الكتـب العلميـة، بـيروت، سـنة ١٤١٠هـ، الطبعـة الأولى، تحقيـق : محمـد السعيد بسيوني زغلول .

(١٦) تفـسير الطـبري (جـامع البيـان عـن تأويـل آي القـرآن) : محمـد بـن جريـر الطـبري أبو جعفر (٣١٠هـ)، دار الفكر، بيروت، سنة ١٤٠٥هـ .

(١٧) الثعـالبي :عبـد الـرحمن بـن محمـد بـن مخلـوف الثعـالبي : تفـسير الثعـالبي (الجـواهر الحـسان في تفـسير القـرآن)، مؤسـسة الأعلمـي للمطبوعـات، بيروت، بدون تاريخ

(١٨) الحربـي : إبـراهيم بـن إسـحاق الحربـي أبـو إسـحاق (٢٨٥هـ) : غريـب الحـديث، جامعـة أم القـرى، مكـة المكرمـة، سـنة ١٤٠٥هـ، الطبعـة الأولى،

تحقيق :: د. سليمان إبراهيم محمد العايد .

(١٩) الحلبي:علي بن برهان الدين الحلبي (١٠٤٤هـ) : السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، دار المعرفة بيروت، سنة ١٤٠٠هـ .

(٢٠) الحموي : ياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله (٦٢٦هـ) : معجم البلدان ، دار الفكر، بيروت .

(٢١) الخليل : أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي(١٧٥هـ) : كتاب العين، دار ومكتبة الهلال، تحقيق :: د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي .

(٢٢) الرازي : محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي(٧٢١هـ) : مختار الصحاح، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، سنة ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥م، تحقيق : محمود خاطر .

(٢٣) رزق الله : مهدي رزق الله : السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، منشورات مكتبة الملك فهد الوطنية .

(٢٤) الزرقاني: محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني (١١٢٢هـ) : شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٤١١هـ، الطبعة الأولى .

(٢٥) السهيلي:عبد الرحمن بن عبدالله الخثعمي السهيلي (٥٨١هـ) : الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام،دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م، تحقيق: مجدي منصور الشورى .

(٢٦) سيف : د . محمود على سيف : جغرافية المملكة العربية السعودية، نشر : مكتبة دار العلوم بأبها، بدون تاريخ .

(٢٧) السيوطي: عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي (٩١١هـ) : الدر المنثور، دار الفكر، بيروت، سنة ١٩٩٣م .

(٢٨) الشافعي : أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي(٢٠٤هـ): الأم، دار المعرفة– بيروت سنة١٣٩٣هـ – الطبعة : الثانية

(٢٩) الشافعي : أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي(٢٠٤هـ): مسند الشافعي، دار الكتب العلمية ،بيروت، بدون تاريخ .

(٣٠) الشريف : أحمد إبراهيم الشريف : مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربي، بدون تاريخ .

(٣١) الشوكاني : محمد بن علي بن محمد الشوكاني(١٢٥٠هـ) : فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ

(٣٢) صحيح ابن خزيمة: محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري(٣١١هـ)، المكتب الإسلامي، بيروت،سنة ١٣٩٠ هـ- ١٩٧٠م، تحقيق : د. محمد مصطفى الأعظمي .

(٣٣) عبد الصمد : محمد كامل عبد الصمد : الإعجاز العلمي في القرآن والسنة والنبوية. دار السلام للطباعة والنشر .

(٣٤) العثيمين : عبد الله الصالح العثيمين : تاريخ المملكة العربية السعودية، الطبعة ١٢ سنة ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م نشر مكتبة العبيكان .

(٣٥) العكبري : أبو البقاء محب الدين عبدالله بن أبي عبدالله الحسين بن أبي البقاء عبدالله بن الحسين العكبري (٦١٦هـ): التبيان في إعراب القرآن، إحياء الكتب العربية، تحقيق : علي محمد البجاوى .

(٣٦) الفاكهي: محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهي أبو عبد الله (٢٧٥هـ) : أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه-دار خضر: بيروت - سنة ١٤١٤هـ - الطبعة : الثانية - تحقيق : د. عبد الملك عبدالله دهيش .

(٣٧) القرطبي: محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي أبو عبد الله (٦٧١هـ) : تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، دار الشعب، القاهرة، سنة ١٣٧٢هـ . الطبعة الثانية، تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني.

(٣٨) الكلاعي : أبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي(٦٣٤هـ) : الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٩٩٧م . تحقيق : د.محمد كمال الدين عز الدين علي .

(٣٩) مسلم : مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري (٢٦١هـ): صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق : محمد فؤاد عبدالباقي.

(٤٠) الهائم: شهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري(٨١٥هـ) : التبيان في تفسير غريب القرآن، دار الصحابة للتراث بطنطا، القاهرة، سنة ١٩٩٢م، الطبعة الأولى، تحقيق: د..فتحي أنور الدابولي .

(٤١) الهروي: محمد بن أحمد بن الأزهر الأزهري الهروي أبو منصور (٣٧٠هـ) : الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي، نشر : وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، سنة ١٣٩٩هـ، الطبعة الأولى، تحقيق :: د. محمد جبر الألفي .

(٤٢) الواحدي : علي بن أحمد الواحدي أبو الحسن(٤٦٨هـ) : تفسير الواحدي (الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)، دار القلم ، الدار الشامية، دمشق ، بيروت، سنة ١٤١٥هـ، الطبعة الأولى، تحقيق : صفوان عدنان داوودي .